الفصل السابع

الخطوة السادسة

ليس الفشل عدوَّك .....
فقد يكون لك بالمرصاد

لدي صديق يباشر يومه بالوقوف أمام المرآة ليقول: «إنني أغفر لك ياولد». إن هذا أمر تافه لاقيمة له في مرحلة تنتقل من أخطاء الأمس، فذلك ليس في نهاية المطاف سبيلاً إجبارياً بل مجرد نقطة على الطريق لكي تضحك.

ديان سوَير

إي بي سي نيوز

تُراك تشعر بالوحدة والإخفاق في مواكبة الحياة يداً بيد. طرحنا على المشتركين في المسح سؤالاً حول أنواع الفشل الذي تعرضوا له، فاحتل رأس القائمة الطرد من الوظيفة أو التسريح و إنهاء علاقة طويلة الأمد جاء الزواج في المقام الأول منها. النهايات متشابهات. هناك في غالب الأحيان عدم تصديق، فيقال: لايمكن أن يحدث هذا، وغضب، أنا له / أنا لها، وأسى عاطفياً أيضاً: لايمكن الجمع بين أي شيء، و تسويغ عقلاني في غالب الأحيان، ماحدث ليس نتيجة لخطئي ليست مشكلتي؛ فالمشكلة هو أو هي، وغالبا مايتم الانتهاء منها بصورة خصوصية: أنت

والشخص الآخر فقط، تصوروا مايحدث لو أن الملايين شاركوا في محنتك.

سألنا المشتركين في المسح الذي أجريناه عما إذا كانوا يغفرون أخطاءهم لأنفسهم، فكان الرجال والنساء متقاربين هنا حيث بلغت نسبة الذين قالوا **نعم** : ١٩٪ بين الرجال و ١٨٪ بين النساء، وكنَّ أكثر ميلاً إلى القول **غالباً** فبلغن ٥١٪ مقابل ٤٢٪ من الرجال، أما **أحياناً** فكان نصيبها عند النساء ٣٥٪ والرجال ٢٥٪ وأخيراً تساوى الرجال والنساء عند الإجابة **نادراً** مايغفرون لأنفسهم فكانت نسبتهم ٥٪.

شأن عام

السياسة تضع قصة فيلم تصويرية ممتعة، ولو أن أحداً كتب مثل هذه القصة عن انتخابات عام ٢٠٠٠ القومية، لتوقع ماحدث القليلون، وحسبما أعرف فليس هناك من أحد تم طرده من عمله وهو ظاهر على الهواء مباشرة، لكن ذلك حصل عام ١٩٨٠ حين كانت كارن كيسلر Karen Kessler مديرة تنفيذية لحملة الديموقراطيين المالية، وتم طردها في مؤتمر الديموقراطيين وفي يدها المِصْوات وصورتها تظهر على آلة التصوير المسلطة عليها.

عام ١٩٨٠ كنت المديرة التنفيذية لمنطقة نيويورك المرتبطة بلجنة الديموقراطيين القومية، وكنت أعمل منذ ثلاثة أعوام ونصف على إيجاد عملية كاملة للحزب. وبعد أن تم ترشيح وولتر موندیل Wal-ter Mondale في مؤتمر الديموقراطيين في ذلك الصيف قررت هيئة موظفيه أن يستخدموا عناصرهم في مكتب نيويورك، وتم طردي على أرض المؤتمر.

السبب الذي أعطِي لي هوَ أنه لايريد سوى أعوانه. لقد دمَّروني، وأنا التي ظننت أني أعمل لمصلحة الجميع، واعتقدت أنك إن تعمل بصورة جيدة تجد مكافآتك.

طيَّر عدد من الأشخاص برقيات إلى بعض الناس وهاتفوهم بالنيابة عني. قال رؤسائي: «لن نأخذ بهذا التسريح» وتمت إعادتي إلى ماكنت عليه في نهاية المطاف. زال وهمي السياسي بشكل عام منذ ذلك الحين، وتضاربت مشاعري بشأن موظفي موانديل منذ أن كنت متأكدة في الحقيقة بالمدى الذي يخصني من تلك القرارات.

الأمر الذي أثار الوضع كله هو أن وسائل الإعلام نصبت آلة تصوير ومِصْواتاً في وجهي خلال خمس دقائق من إبلاغها عن إدخال تغييرات على منصبي وقالت لي: « سمعنا منذ قليل جداً أن حملة موانديل ستطلق سلسلة من التسريحات، وها نحن أمام التي سمعنا أنها ستكون أول هؤلاء المسرحين». وقفت وعلى وجهي نظرة حمقاء. ومرَّت في خاطري فكرة على الفور: «آمل ألا يكون والداي يشاهدان التلفاز». كان الوضع مدمراً تماماً. كان جوابي على المقابلة: «لست أدري عما تتحدثون» وانسحبت.

انطلقت بعدئذ للتصدي لهذا الأمر، واستغرق ذلك مني بعض الوقت. عدت إلى غرفتي في الفندق وخلوت إلى نفسي ساعات ثلاث ثم باشرت اتصالاتي إلى أن بدأت أشعر أن من الظلم أن يتم تسريحي، ولا علاقة لذلك بمن أكون لأني على يقين بأدائي الحسن على أصوله وتمامه. وعلمت أن من غير الحق أن يحدث الذي حدث. وهكذا بدأت

ابحث من خلال تلك المهاتفات عن طريقة يمكن من خلالها ممارسة ضغوط كافية على صناع هذا القرار، فربما أمكن إلغاؤه.

وهذا ماحصل. لقد اتصلت عن طريق الهاتف والبرقيات بكل شخص مهم اشتغلت معه في السنوات الثلاث والنصف الماضيات من أجل عكس القرار، وقررت ألا أسلم بالأمر.

ربما كان من السهل على كيسلر أن تلعق جراحها وتختفي، ولكنها اختارت مدعومة بأصدقائها وزملائها ألا تفعل ذلك، وألا ترضخ للنيل منها وألا يؤدي الفشل الذي تجسد بتغيير الرياح السياسية إلى ضمها بين جناحيه.

ثلاث ضربات وما زال صامداً .... حتى الآن

عليك أن تقدم الشكر لمارك غولدستون Mark Goldston الذي يسعى اليوم يائساً إلى استعادة وضعه السابق بعد أن شارك باختراع الحذاء القماشي الخفيف الذي يرتع به الأطفال والذي وُضِعَت كنيته عليه، وكان قد عمِل مديراً تنفيذياً لشركة ل. آ. جير L. A. Gear (التي أفلست)، وقبل ذلك مديراً للتسويق في شركة ريبوك Reebok، وقبلها رئيساً لسلسلة - الخيبة المالية - مطاعم آينشتاين نوح باجل Einstein Noah Bagel.

آخر الجهود التي يبذلها غولدستون تتمثل بشركة نيتزيرو Netze-ro، وغالب الظن أن فلاحه من خلال شركةٍ على شبكة المعطيات العالمية أمر مستحيل، لأنها تعتمد على الإعلانات القماشية المعلقة دائماً

في الشوارع. وهذه الشركة توفر مدخلاً مجانياً إلى الشبكة لكل من يرغب بتأييد سيل هذه الإعلانات، ولهذا الدخول أثر سلبي هو أن خسارة الشركة تزداد طرداً مع طول بقاء الداخل على الشبكة، ولم تكن الشركة التي تخسر المال نمطاً رابحاً في الهزة التي أصابت شركات الشبكة عام ٢٠٠٠.

ومع انقضاء عام ٢٠٠١ قضي على مقدمي الدخول «المجاني» إلى شبكة المعطيات العالمية، وانخفض سعر سهم شركة نيتزيرو من أربعين دولاراً عام ٢٠٠٠ إلى أقل من دولار واحد عام ٢٠٠١. وتشير آخر الأنباء أن الزمان وحده كفيل بالكشف عن عزم الشركة على استبقاء غولدستون في منصب مديرها التنفيذي سواء بقيت أو اندثرت. ورغم أن المغامر التجاري غولدستون قد عانى من الخطوب الجلل التي ألمَّت به، فإني أشك في أنه يسعى بائساً وراء أمل كبير أو اثنين! وما زال يسعى.

وأخيراً لابد من عملها في ميدانين معاً

مالكة وكالة أو كلاهو ما للعمالة جين كيللي Jean Kelly لم تفعل شيئا بطريقة صغيرة، فخلال سنتين سُرِّحت من ست وظائف.

بدأت العمل في ميدان العمالة منذ عام ١٩٦٩، وقبل ذلك اشتغلت في ثماني وظائف خلال سنتين طُردت من ست منها، وكنت في الوقت ذاته أدرس وأحقق معدلاً قدره ١,٨ في الكلية، وانتهى بي المطاف إلى التسرب منها أيضاً. حين بلغت الثالثة والعشرين كنت مديرة لأكبر وكالة عمالة في تولسا Tulsa بأوكلاهو ما، وفي السنوات الثلاث

التالية حافظت على أعلى المبيعات في الشركة بالإضافة إلى العمل مديرة لها.

عندما بلغت السادسة والعشرين افتتحتُ وكالة جين كيللي للعمالة بمبلغ ٧٢٠٠ دولار استدنتها من عمي الذي اتفقت معه على أن يمول شركتي ويكون شريكي إلى أن أعيد إليه ذلك المبلغ بكامله. كنت حينذاك في مطلع شبابي ساذجة وظننت أن إعادة كامل المبلغ صفقة تعود بالخير علي، وقد تعلمت فيما بعد أنها كذلك لأني لم أكن أستطع الحصول على المال من أي مكان آخر، كذلك فضمانته لم تكن كبيرة: نفسي وعملي.

عانت تولسا كثيراً أثناء الركود الذي حصل عام ١٩٨٢، وما كان ذلك ركوداً بل كساداً، ذلك أنا كنا نعتمد على النفط. انخفضت إيراداتي خلال اثني عشر شهراً من مائة وعشرين ألف دولار إلى ٢٥٠٠٠، واليوم يظن الناس أن هذا مبلغ كبير، ولكن مصروفاتي زادت عن مائة ألف دولار في السنة. أظن أن ذلك كان خطئي إذ لم أدرك أن ذلك الركود/الكساد مستمر.

تدربت - كعنصر مبيعات - على أن باستطاعتك أن تفعل كل ماتريد أن تفعله، وأن فشلك في ذلك يعود إلى خطئك، فكان يصعب علي أن أقبل بأن ظروفاً خارجية - حتى ارتفاع أسعار النفط - يمكن أن تؤثر على دخلي.

تراجعتُ من شركة قوامها ثماني مستخدمين إلى اثنين فقط كنت أنا واحدة منهم، وانتقلنا من شقة ذات إطلالة رائعة تمتد إلى خط الأفق

في قلب مدينة تولسا إلى شقة لاتزيد عن غرفة صغيرة في حي مزدحم، وكان ذلك كالبداية من جديد ولكن دون اقتراض ٧٢٠٠ دولار من عمي.

إضافة إلى ذلك تزوجت عام ١٩٨٠ لأول مرة، وكنت أماً كبيرة لولدَي زوجي، وأنقصت فترة عملي الأسبوعية إلى ٤٥ ساعة. كنت قادرة على الاستيقاظ باكراً، والركض ثلاثة أميال، ثم أبدأ بإعداد العشاء، وعندما أصل إلى البيت عند السادسة أستطيع أن أجهز كل شيء. بدا الوضع وكأننا أسرة مثالية. في السنة التالية كان عليَّ أن أتلاءم مع الفشل الشخصي / المهني الكبير. أما بخصوص شركتي، فكنت على وشك الخروج من ميدان العمل.

لم أعبِّر عن معظم الألم الذي انتابني ومعظم الناس الذين أعرفهم لم يعرفوا بعذابي الكبير. فمن الناحية الفلسفية تأصَّل في نفسي ألا تعرض أمام الآخرين آلامك، فهم لايكترثون، إذ أن لديهم في نهاية المطاف آلامهم، وأراني في آخر الأمر مغامِرة تجارية وحيدة في مواجهة أشياء مثل رهن منزلي إلى الحد الأعظم.

وعدتْ كيلي نفسها بألا تفسح المجال للتداخل بين عملها وأسرتها، وأنها لن تعرض بيتها للخطر مقابل عملها، وفي ذلك السياق اضطرت إلى مواجهة بضعة قرارات، وقالت إن زوجها كان يقدّم الدعم لها في تلك الأثناء. كان الوضع بمجمله مرعباً، ورغم مرور عدة سنوات، ورغم أنها تعمل بصورة جيدة جداً، إلا أنها مازالت تعاني من ندبات نفسية.

«من السهل علي الاقتراب من ذلك الألم، وكل ماعلي فعله هو أن أفكر بتلك الأيام، فما زالت غضة طرية».

الخاطرة العاشرة

النجاح يأتي عادة من خلال معمودية النار، وإذا كنت تتوسع فلا بد من الفشل والأزمات، وإذا نظرت إلى ذلك باعتباره مدرسة الحياة كنت أنت المنتصر.

النجاة من النار

هناك مستويات من الفشل والأزمات، وعندما يحل بك أحدها يصبح في غالب الأحيان عامل د فع مهم لك لأن تفعل شيئاً؛ إعادة التقويم وتعلم شيئ جديد والتحرك إلى الأمام. الرجال والنساء في دراستنا قالوا: إنهم بعد تجاوزهم الأزمة شعروا في البداية بضعفهم، في قوة العمل وفي أنفسهم أيضاً، ولكنهم على المدى الطويل أصبحوا أكثر قوة بكثير وتكوَّن في داخلهم شيئاً إيجابياً.

مدرِّبة المدراء باتريشيا غوس Patricia Goss تتذكر حينما درَّست في جامعة سيتي City بنيويورك وكانت تشارك بمجلس الكلية الذي كان يناقش موضوع إدخال لغة أجنبية إلى المقررات المطلوبة للنجاح.

مما يبعث على السخرية أن نصف الطلاب المسجلين في جامعة سيتي لايستطيعون حتى التحدث باللغة الإنكليزية بالشكل المناسب، ناهيك عن إضافة لغة أجنبية ثانية.

وقفت في مجلس الكلية وقلت: «إذا أردتم إنقاذ وظائف بعضكم بعضاً، دعونا نجد طريقة لذلك. ولكن لنفترض أننا سننقذ الوظائف في اللغات الرومانسية أو الإيطالية أو اليونانية من خلال إضافة لغة أخرى مطلوبة، والنتيجة هي أن ماستضيفونه سيؤدي إلى اضطراب في مجمل عملية التسجيل في الجامعة، وستحل الفوضى ولن يلتحق بها الناس.

كنت على طريق إعادة التعيين باعتباري أستاذة غير أصيلة، وفي يوم السبت التالي وصلتني رسالة بالبريد لاتتضمن سوى تسريحي، فصعقت. استعرضت ماجرى وعُدت أبحث عن السبب الذي أمكن من تسريحي.

كان قسمي مجمِعاً على استخدامي لمدة أربع سنوات، وقد صوَّت كل أعضائه لصالحي، ورأوا في تسريحي أمراً فظيعاً. أما وأني في سبيلي إلى التسريح، فقد راح كل منهم يقدم لي الأسباب التي أدت إلى ذلك، ويتحدث عني، حتى أنا سايرتهم في نهجهم.

وجدت أن الأصوات السلبية جاءت من قسم العلوم الإنسانية حيث صوَّت الأساتذة الذين يدرِّسون الإيطالية واليونانية ضدي بسبب ما قلته في اجتماع مجلس الكلية.

لقد فصِلت لأني أفصحت عما آمنت به، وقد تحطمت تماماً بسببه.

انتابني شعور فظيع، رفض كامل، ولم يكن ذلك صدمة لي فحسب، بل شعرت أن كل مسيرتي المهنية تغوص إلى أدنى الأرض. وأحسست خلال تلك الفترة أنني شخص لا قيمة له البتة، وأعرف أن الآخرين لابد وأن ينتابهم نفس الشعور أيضاً.

بعد ذلك بدأت أفكر مرة ثانية بما فعلت. كان من الجنون أن أتحدث بما قلت، خصوصاً في ظل كوني غير أصيلة. تابعت الحديث مع نفسي: «كيف تحدثتُ بما جال في خاطري بحرية وأنا غير أصيلة؟».

كنت متزوجة حينذاك من زوجي الأول - المحامي - الذي جن جنونه، وكان في الحقيقة منزعجاً أكثر مني، وقد غضب هو وصديق قريب منه أكثر مما غضبت، ومع غضبهم دفعوا بي إلى النضال ضد ذلك التسريح وشجعوني على ذلك.

كتب زوجي رسالة مزعِجَة إلى رئيس الجامعة، وقد نُقِض تسريحي خلال وقت قصير جداً، ولكني لم أصفح عن الجامعة كما لم أنس ما عانيت خلال العديد من السنوات الماضيات.

لم يصدق أحد أن القرار سينقَض، إذ كان إجماع الآراء يدل على أن شيئاً لن يتغير إلى مساره الصحيح بعد أن اتخذ السبيل الخاطئ، وعندما ربحتُ تنحى الجميع وتركوني وحيدة.

أحس زوجي بوجود قضية تمييز واضحة وأن هناك تحديداً لحريتي في الكلام، ولكن كم هو عدد - الأشخاص من بيننا - الذين كانوا سيدركون ذلك؟ من المحتمل كثيراً أنني لو لم أكن متزوجة من زوجي

المحامي أو من رجل مثله لتفشى الشك الذاتي في نفسي ولبقيت الجامعة على نهجها ولبقيتُ أعانق التراب.

ومما يثير السخرية أن تربح نساء جامعة سيتي بعد سنوات عديدة قضية بملاين كثيرة من الدولارات لأمر يماثل ما تعرضت له غوس.

أمر ينبغي إلغاؤه

قبل افتضاح ترَّهات بيت بيل كلينتون الأبيض مع مونيكا لوينسكي، كان هنري سيسنيروس Henry Cisneros وزير الإسكان والتنمية الحضرية في إدارته متورطاً هو نفسه بعلاقة غرامية خارج نطاق الزواج الشرعي، حيث ظهرت فضيحة أخرى في نفس الوقت بسبب تستُّر هنري على العلاقة الغرامية، ودفعه المال لعشيقته لقاء خدماتها المريبة مع غرامة قدرها عشرة آلاف دولار بسبب الكذب على مكتب التحقيقات الفدرالي، ثم اضطر إلى الاستقالة من الإدارة، مما شكل ضربة للمتحدرين من أمريكا اللاتينية الذين كانوا يفتخرون بمنصبه.

قال سيسنيروس في مقابلة جرت مؤخراً مع هيلين ثورب Helen Thorpe : «من المريح أن تسوية الموضوع تمت بصورة قانونية وليس بصورة عاطفية أو فكرية لأنه كان مؤلماً جداً وجزءاً كبيراً من حياتي لفترة طويلة من الزمن». وأضاف :

لقد ثبت إلى رشدي بسبب هذا الأمر، وأوضعت نفسي وكنت أستمد القوة الروحية لكي أسلك سبيل التفاؤل على أفضل وجه لحياتي بقدر استطاعتي.

تعلمت الكثير من الرجل الذي كان رب عملي - بيل كلينتون - في أن تستيقظ صباح كل يوم وتتطلع إلى العالم بنظرة جديدة وتتابع مسيرتك دون الاهتمام بما فيها. وعندما انحطَّت معنوياتي رفض الاستماع لي بشأن التخلي عن عملي وقال لي: «بالطبع لا، قم بعملك وتابع سعيك».

تابع سيسنيروس يقول إنه تعامل مع الماضي على ما هو عليه، وإن أسرته بخير، وإنه حقق نجاحاً في عمله منذ استقالته. ربما شعر بسبب تجربته أنه الضحية وأن وسائل الإعلام وخصومه السياسيين قضوا عليه، لكنه اختار ألا يسقط في الطريق. لقد منحه بيل كلينتون العفو في آخر يوم من رئاسته.

ربما أمكن لأي من هؤلاء الرجال والنساء أن يسقطوا في الحمأة ولكنهم نجوا، فتجاربهم وفشلهم ونجاتهم جميعها أدلة على قدرتهم التي تعلموها ومكنتهم من المشاركة في صورة مسيرة الحياة الكبرى.

عندما تنشب الأزمة - بصرف النظر عن ماهيتها - عليك بالتنحي جانباً، والتنفس بعمق مرة وربما مرات عديدة، ثم التجئ إلى الذين يهمهم أمرك ويقدروك حق قدرك وغير المتحيزين من أصدقائك الموثوقين أو زوجك أو شريك حياتك، فلعلك بحاجة إلى المساعدة حتى يصبح الوضع تحت ناظريك فتدرك مجريات الأمور من حولك.

كل كبوة وكل أزمة يمكن أن تتحول إلى فرصة، واعلم أن كلمة أزمة تتألف في اللغة الصينية من حرفين، أحدهما يدل على الخطر والآخر على الفرصة، وعلى ذلك فلكل ضيق مخرجٌ يمكن أن تتعلم منه وتكبر من خلاله

وتسير بنفسك نحو الأفضل. لايحب أحدنا أن يتعرَّض لأزمات الحياة والكبوات التي تواجهنا، لكنها مع ذلك تساعدنا على أن نأخذ عبرة مما يلحق بنا بسببها ونعلم دون مناقشة أن بعد العسر يسراً.

الخاطرة الحادية عشرة

لقد مضى الفشل الذي مر بك أو خبرته، وأصبح من الأمس، وليس من اليوم أو من الغد، والقرار الخاص بكيفية التصدي له

هو شيء يقع تحت سيطرتك أنت وحدك.

إن تعريف الفشل لايتعلق بعملية الفشل بحد ذاته ومهما كان نوعه، لكنه الكبوة التي تصاب بها ولا تنهض فتحاول من جديد، فالعنقاء (١) تنهض ثم تنهض مرات ومرات.

(١) Phoenix العنقاء: طير خرافي في الميثولوجيا المصرية يحرق نفسه بعد خمسمائة سنة ثم يتجدد من الرماد الذي تخلف عن حرقه (المترجم)